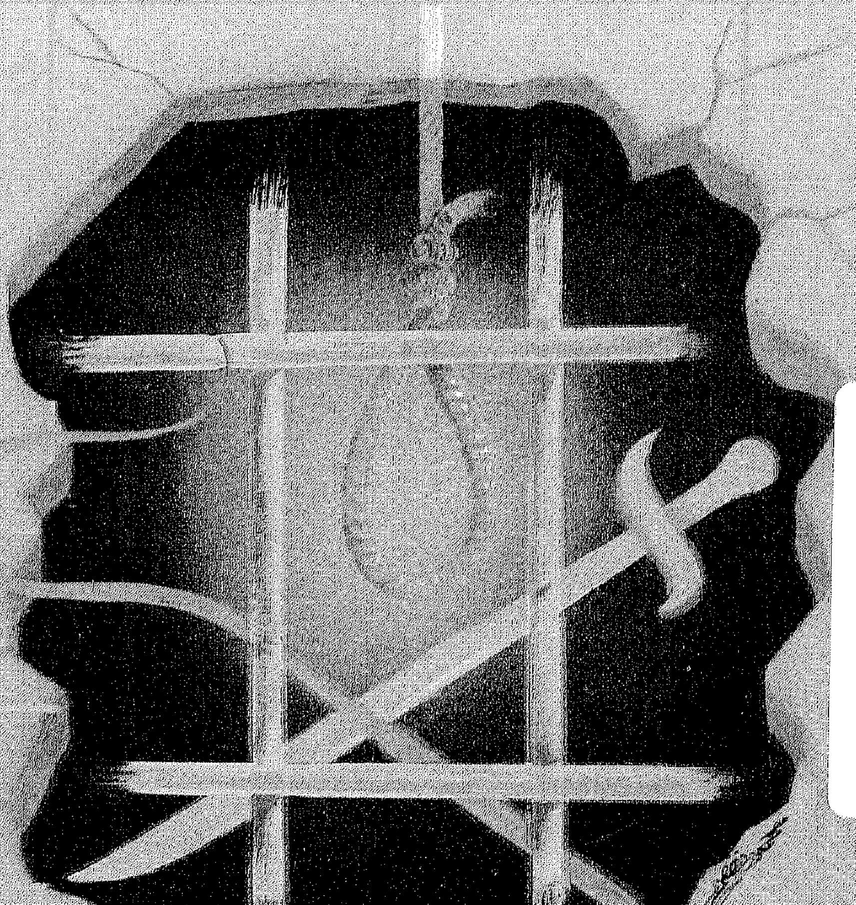
صور من ابتلاء العلماء

بقلم
وحيد عبد السلام بالي
عفا الله عنه وغفر له



دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
الإسكندرية ت: ٥٤٥٧٧٦٩

اهداءات ٢٠٠٢
دار الايمان

اهداءات ٢٠٠٢
دار الايمان

صور من
ابتلاء العلماء

بقلم
وحيد عبد السلام بالي
عفا الله عنه وغفر له

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
الإسكندرية ت: ٥٤٥٧٧٦٩٠

بسم الله الرحمن الرحيم

رقم الإيداع ٩١٠٧/٩٨

الترقيم الدولى

977-5191-59-9

دار الإيمان

للطبع والنشر والتوزيع

١٧ ش خليل الخياط - مصطفى كامل

إسكندرية ت: ٥٤٥٧٧٦٩ - ٥٤٤٦٤٩٦

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلامضل له ومن يضلل فلا هادى له وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

وبعد : فهذه مواقف مشرقة اخترتها من تاريخ أمتنا الإسلامية المجيد تصور حال العلماء مع الأمراء لأن هذين الصنفين إذا صلحا صلحت الأمة بصلاحهما وإذا فسدا فسدت الأمة .

وقد كتبت هذه المواقف التاريخية دونما تعليق لأن كل موقف يحمل في طياته العظة للمتعظ والعبرة للمعتبر كتبتها تنبيها للغافل وتذكيرا للناسي .

والله أسأل أن ينفع بها إنه ولي ذلك والقادر عليه ، وصلّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

الحجاز في ٤ من صفر سنة ١٤١٠هـ

وكتبه

أفقر الخلق إلى الله

وحيد عبد السلام بالي

بين سعيد بن جبير
والحجاج الثقفي

كان الحجاج بن يوسف ، فاسق بني ثقيف ، واليا لعبد الملك يأخذ بالشبهات ويتحرى المناوئين في جميع البلاد الإسلامية لحكم أميره وسيده .

فيصب المحن عليهم دون هوادة ولاخوف من الله المقتدر الجبار وكان خالد بن عبد الملك القسرى واليا على مكة المكرمة شرفها الله وقد علم بوجود ابن جبير في ولايته فألقى القبض عليه واعتقله ثم أراد أن يتخلص منه فأرسله مخفورا مع إسماعيل بن واسط البجلي إلى الحجاج ابن يوسف .

قال الحجاج : ما اسمك؟ .

ســعيد : سعيد بن جبير .

الحجاج : بل أنت شقي بن كسير .

ســعيد : بل كانت أمي أعلم باسمى منك .

الحجاج : شقيت أمك وشقيت أنت .

ســعيد : الغيب يعلمه غيرك .

الحجاج : لابد لك بالدنيا ناراً تلظى .

ســعيد : لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتُك إلها .

الحجاج : فما قولك في محمد ؟ .

ســعيد : نبي الرحمة وإمام الهدى .

الحجاج : فما قولك في علي أهو في الجنة أم هو فى النار ؟ .

ســعيد : لو دخلتها وعرفت من فيها ، عرفت أهلها .

الحجاج : فما قولك في الخلفاء ؟ .

ســعيد : لست عليهم بوكيل .

الحجاج : فأيهم أعجب إليك ؟ .

ســعيد : أرضاهم لخالقي .

الححاج : فأيهم أرضى للخالق .

ســعيد : علم ذلك عند الذى يعلم سرهم ونجواهم .

الحجاج : أحب أن تصدقني .

ســعيد : إن لم أحبك لن أكذبك .

الحجاج : فمابالك لم تضحك ؟ .

ســعيد : وكيف يضحك مخلوق خلق من طين والطين تأكله النار !! .

الحجاج : فما بالنا نضحك ؟ .

ســعيد : لم تستو القلوب .

ثم أمر الحجاج باللؤلؤ والزبرجد والياقوت ، فجمعه بين يديه .

فقال سعيد : إن كنت جمعت هذا لتتقي به فزع يوم القيامة فصالح وإلا ففزعة واحدة تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، ولاخير في شيء من الدنيا إلا ما طاب وزكا .

ثم دعا الحجاج بالعود والناى ، فلما ضرب بالعود ونفخ بالناى بكى سعيد .

فقال : مايبكيك أهو اللعب ؟ .

قال سعيد : هو الحزن ، أما النفخ فذكرني يوما عظيماً يوم ينفخ في الصور ، وأما العود فشجرة قطعت من غير حق !! وأما الأوتار فمن الشاة تبعث يوم القيامة !! .

قال الحجاج : ويلك ياسعيد .

فقال : لاويل لمن زحزح عن النار وأدخل الجنة .

قال الحجاج : اختر ياسعيد أى قتلة أقتلك ؟ .

فقال : أختر أنت لنفسك فوالله لا تقتلني قتلة إلا قتلك الله مثلها في الآخرة ؟ .

قال : أتريد أن أعفو عنك ؟ .

فقال : إن كان العفو فمن الله وأما أنت فلا براءة لك ولا عذر .

قال الحجاج : اذهبوا به فاقتلوه ، فلما خرج ضحك فأخبر الحجاج بذلك فردوه إليه .

وقال : ما أضحكك ؟ .

فقال : عجبت من جرأتك على الله وحلم الله عليك .

فأمر بالنطع فبسط .

وقال : اقتلوه .

فقال سعيد : وجهت وجهي للذى فطر السموات والأرض حنيفا مسلما وما أنا من المشركين .

قال الحجاج : وجهوا به لغير القبلة .

قال سعيد : فأينما تولوا فثم وجه الله .

قال الحجاج : كبوه على وجهه .

قال سعيد : منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى .

قال الحجاج : اذبحوه .

قال سعيد : أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله خذها منى حتى تلقاني بها يوم القيامة ، اللهم لا تسلطه على أحد يقتله بعدى(١) .

---

(١) وفيات الأعيان (٣٧١/٢) .

بين حطيط والحجاج

جيء بالعالم حطيط الزيات إلى الحجاج ، فلما دخل عليه.. .

قال : أنت حطيط .

قال : نعم .

قال حطيط : سل عما بدالك فإني عاهدت الله عند المقام[1] على ثلاث خصال إن سُئِلتُ لأصدقنَّ وإنِ أُبتلِيتُ لأصبرن وإن عُوفيتُ لأشكرن .

قال الحجاج : فما تقول فيَّ ؟ .

قال : أقول فيك إنك من أعداء الله في الأرض تنتهك المحارم وتقتل بالظُّنة .

قال : فما تقول في أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان .

قال : أقول إنه أعظم جرما منك ، وإنما أنت خطيئة من خطاياه فأمر الحجاج أن يضعوا عليه العذاب ، فانتهى به العذاب إلى أن شقق له القصب ، ثم جعلوه على لحمه وشدوه بالحبال ثم جعلوا يمدون – يستلون – قصبة قصبة ، حتى انتحلوا لحمه ، فما سمعوه يقول شيئا ، فقيل للحجاج إنه في آخر رمق .

(١) مقام إبراهيم عليه السلام عند الكعبة المشرفة .

فقال : أخرجوه فارموا به فى السوق .

قال جعفر : وهو الراوى فأتيته أنا وصاحب له .

فقلنا له : حطيط ألك حاجة .

قال : شربة ماء .

فأتوه بشربة ثم استشهد ، وكان عمره ثمانى عشرة سنة رحمه الله(٢) .

* * *

(٢) الاحياء الجزء الخامس (ص ٥٤) .

بين سعيد بن المسيب
وهشام بن إسماعيل

قال يحيى بن سعيد ، كتب هشام بن إسماعيل والى المدينة إلى عبد الملك بن مروان أن أهل المدينة قد أطبقوا على البيعة للوليد وسليمان إلا سعيد بن المسيب .

فكتب أن اعرضْه على السيف فان مضى فاجلده خمسين جلدة وطف به في أسواق المدينة ، فلما قدم الكتاب على الوالي دخل سليمان ابن يسار وعروة بن الزبير وسالم بن عبد الله على سعيد بن المسيب وقالوا: جئناك في أمر ؛ قد قدم كتاب عبد الملك إن لم تبايع ضربت عنقك ونحن نعرض عليك خصالا ثلاثا فأعطنا إحداهن ، فإن الوالي قد قبل منك أن يقرأ عليك الكتاب فلا تقل لا ولا نعم .

قال : يقول الناس بايع سعيد بن المسيب ، ما أنا بفاعل وكان إذا قال (لا) لم يستطيعوا أن يقولوا نعم .

قالوا : تجلس في بيتك ولا تخرج إلى الصلاة أياما فإنه يقبل منك إذا طلبك من مجلسك فلم يجدك .

قال : فأنا أسمع الأذان فوق أذني حيَّ على الصلاة حيَّ على الصلاة ما أنا بفاعل .

قالوا : فانتقل من مجلسك إلى غيره فإنه يرسل إلى مجلسك فإن لم يجدك أمسك عنك .

قال : أفرقا من مخلوق !! ما أنا متقدم شبراً ولا متأخر فخرجوا وخرج إلى صلاة الظهر فجلس في مجلسه الذى كان فيه فلما صلى الوالي بعث إليه فأتى به .

فقال : إن أمير المؤمنين كتب يأمرنا إن لم تبايع ضربنا عنقك .

قال : نهى رسول الله ﷺ عن بيعتين بيعة للوليد ومثلها لسليمان في وقت واحد فلما رآه لم يجب أخرج إلى السدة فمدت عنقه وسلت السيوف ، فلما رآه قد مضى أمر به فجُرِّد فإذا عليه ثياب من شعر .

فقال : لو علمت ذلك ما اشتهرت بهذا الشأن فضربه خمسين سوطا ثم طاف به أسواق المدينة فلما ردوه والناس منصرفون من صلاة العصر قال إن هذه الوجوه مانظرت إليها منذ أربعين سنة(١). ومنعوا الناس أن يجالسوه فكان من ورعه إذا جاء إليه أحد يقول له قم من عندى كراهية أن يضرب بسببه(٢) .

* * *

(١) لأنه كان لايبظر إلى قفا رجل فى الصلاة . إذ كان يصلى فى الصف الأول ولم تفته تكبيرة الإحرام رضى الله عنه .

(٢) وفيات الأعيان (٢/٣٧٧). وسير أعلام النبلاء (٤/٢٣١) والحلية (٢/١٧٠) .

بين أبي حازم وسليمان بن عبد الملك

حين قدم سليمان بن عبد الملك المدينة وهو يريد مكة ، أرسل إلى عالمها الجليل أبى حازم فلما دخل عليه .

قال سليمان : يا أبا حازم ما لنا نكره الموت .

فقال : لأنكم خربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم فكرهتم أن تنقلوا من العمران إلى الخراب .

فقال سليمان : كيف القدوم على الله .

قال : ياأمير المؤمنين أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله وأما المسيء فكالابق يقدم على مولاه .

فبكى سليمان وقال : ليت شعرى مالى عند الله ؟ :

قال أبو حازم : اعرض نفسك على كتاب الله حيث قال : ﴿ إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم ﴾ .

قال سليمان : فأين رحمة الله ؟ .

قال : قريب من المحسنين .

قال : ياأبا حازم أى عباد الله أكرم ؟ .

فقال : أهل البر والتقوى .

قال : فأى الأعمال أفضل ؟ .

فقال : أداء الفرائض مع اجتناب المحارم .

قال : أى الكلام أسمع ؟ .

فقال : قول الحق عند من تخاف وترجو .

قال : فأى المؤمنين أخسر ؟ .

فقال : رجل خطأ فى هوى أخيه وهو ظالم فباع آخرته بدنيا غيره .

قال سليمان : ما تقول فيما نحن فيه ؟ .

فقال : أو تعفينى ؟ .

قال : لابد فإنها نصيحة تلقها إلىَّ .

فقال : إن آباءك قهروا الناس بالسيف وأخذوا هذا الملك عنوة من غير مشورة من المسلمين ولا رضا منهم ، حتى قتلوا منهم مقتله عظيمة وقد ارتحلوا فلو شعرت بما قالوا وما قيل لهم

فقال رجل من جلسائه : بئسما قلت .

قال أبو حازم : إن الله قد أخذ الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولايكتمونه .

فقال سليمان : ياأبا حازم كيف لنا أن نصلح للناس ؟ .

قال : تدع الصلف وتستمسك بالعروة[1] وتقسم بالسوية .

قال : كيف المأخذ به ؟ .

قال : أن تأخذ المال فى حله وتضعه في أهله .

قال : ياأبا حازم ارفعْ إلىّ حوائجَك ؟ .

قال : تنجينى من النار وتدخلنى الجنة ؟ .

قال : ليس ذلك إلى .

قال : فلا حاجة لى غيرها ، ثم قام فأرسل إليه بمائة دينار فردها إليه ولم يقبلها[2] .

* * *

(١) فى الأصل (المروه) ولعلها تصحيف .

(٢) وفيات الأعيان (٤٢٣/٢) .

بين عالم وسليمان بن عبد الملك

دخل أحدهم على سليمان بن عبد الملك ، فقال له سليمان تكلم فقال : ياأمير المؤمنين إنى مكلمك بكلام فاحتمله وإن كرهته ، فإن وراءه ماتحب إن قبلته .

فقال : إنا نجود بسعة الاحتمال على من نرجو نصحه ولا نأمن غشه فكيف بمن نأمن غشه ونرجو نصحه .

فقال : يا أمير المؤمنين إنه تكنَّفَكَ(١) رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم وابتاعوا دنياهم بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم خافوك في الله تعالى ولم يخافوا الله فيك حرب الآخرة سلم الدنيا ، فلا تأمنهم على من ائتمنك الله عليه، فإنهم لم يَأْلُوا(٢) في الأمانة تضييعا وفي الأمة خسفا وعسفا وأنت مسئول عما اجترحوا وليسوا بمسئولين عما اجترحت ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فإن أعظم الناس غبنا من باع آخرته بدنيا غيره .

فقال له سليمان : أما إنك قد سللت لسانك وهو أقطع من سيفك .

قال : أجل ياأمير المؤمنين ولكن لا عليك(٣) .

---

(١) الأحياء الجزء الخامس ص ١٢٢ .

(٢) تكنَّفَك : كانوا حاشيتك وأحاطوا بك وكانوا بطانتك .

(٣) لم يألوا : لم يُقصِّروا .

بين غلام
وعمر بنَ عبد العزيز

لما ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز ، وفدت الوفود من كل بلد لبيان حاجتها وللتهنئة فوفد عليه الحجازيون فتقدم غلام هاشمي للكلام وكان حديث السن .

فقال عمر : لينطلق من هو أسن منك .

فقال الغلام : أصلح الله أمير المؤمنين إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه فإذا منح الله عبدا لسانا لافظا وقلبا حافظا فقد استحق الكلام وعرف فضله من سمع خطابه ولو أن الأمر ياأمير المؤمنين بالسن لكان في الأمة من هو أحق بمجلسك هذا منك .

فقال عمر : صدقت قل ما بدا لك .

فقال الغلام : أصلح الله أمير المؤمنين: ونحن وفد تهنئة لا وفد مُرزئة[1] وقد أتيناك لمنِّ الله الذى منَّ علينا وبك ولم يُقْدِمْنا إليك رغبة أو رهبة .

أما الرغبة فقد أتيناك من بلادنا وأما الرهبة فقد أمنا جورك بعدلك .

فقال عمر : عظني يا غلام .

(١) مرزئة : كارثة ومصيبة ومكارة .

فقال : أصلح الله أمير المؤمنين : إن ناسا من الناس غرهم حلم الله عنهم وطول أملهم وكثرة ثناء الناس عليهم فزلت بهم الأقدام فهووا في النار .

فلا يغرنك حلم الله عنك وطول أملك وكثرة ثناء الناس عليك ، فتزل قدمك فتلحق بالقوم .

فلا جعلك الله منهم وألحقك بصالحي هذه الأمة .

ثم سكت .

فقال عمر : كم عمر الغلام ، فقيل له ابن إحدى عشرة سنة ثم سأل عنه فإذا هو من ولد سيدنا الحسين بن علي رضى الله عنهم ، فأثنى عليه خيرا ودعا له .

★ ★ ★

بين مكحول
ويزيد بن عبد الملك

جلس التابعي الجليل مكحول عالم أهل الشام في مجلسه يلقي درسه كعادته وحوله طلاب العلم يأخذون عنه إذ أقبل الخليفة الأموى يزيد بن عبدالملك في زينته وتبختره وجاء إلى حلقة مكحول فأراد الطلاب أن يوسعوا له .

فقال مكحول : دعوه يتعلم التواضع[1] .

* * *

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥/١٥٠) .

بين طاووس
وهشام بن عبد الملك

إن هشام بن عبدالملك قدم حاجا إلى مكة فلما دخلها قال : ائتوني برجل من الصحابة .

فقيل : ياأمير المؤمنين قد تفانوا .

فقال : من التابعين .

فأتى بطاووس اليمانى العالم الجليل رحمه الله .

فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه ولم يسلم عليه بإمرة المؤمنين .

ولكن قال : السلام عليك يا هشام ولَمْ يكْنِهِ[1] وجلس بإزائه .

وقال : كيف أنت ياهشام ، فغضب هشام غضبا شديدا حتى هم بقتله .

فقيل له : أنت فى حرم الله وحرم رسوله ، ولا يمكنك ذلك .

فقال : ياطاووس ما الذى حملك على ما صنعت .

قال وما الذى صنعت ؟ .

---

(١) لم يكْنِه : أى لم يقل له يا أبا فلان ، وقد كانوا ينادى بعضهم بعضا بذلك احتراما وتكريما عادةً ، والكنية ما صيدر بأب أو أم ، ومنه أبو بكر وأبو حفص ، وأم أيمن ، ومنه أبو لهب ، وأبو جهل ...

قال هشام : خلعت نعليك بحاشية بساطى ولم تقبل يدى ولم تسلم بإمرة المؤمنين ولم تكنني رجلست بإزائى دون إذنى وقلت كيف أنت ياهشام ؟! .

فقال : أما ما فعلت من خلع نعلى بحاشية بساطك فإنى أخلعها بين يدى رب العزة كل يوم خمس مرات ولايعاقبنى ولا يغضب على وأما قولك لم تقبل يدى . فإنى سمعت أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول : لا يحل لرجل أن يقبل يد أحد إلا امرأته من شهوة أو ولده من رحمة .

وأما قولك لم تسلم بإمرة المؤمنين فليس كل الناس راضين بإمرتك فكرهت أن أكذب وأما قولك لم تكننى فإن الله سمى أنبياءه وأولياءه .

فقال : ياداود ويايحيى وياعيسى وكنى أعداءه فقال تبت يدا أبى لهب وتب . وأما قولك جلست بإزائى فإنى سمعت أمير المؤمنين عليا رضى الله عنه يقول : إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام .

فقال هشام : عظنى .

قال : سمعت أمير المؤمنين عليا رضى الله عنه يقول : إن فى جهنم حيات كالقلال وعقارب كالبغال تلدغ كل أمير لايعدل فى رعيته ثم قام وخرج(١) .

---

(١) وفيات الأعيان (٢/٥١٠) .

بين طاووس وابن نجيح

عن ابن طاووس قال : كنت لا أزال أقول لأبي إنه ينبغي أن يخرج على هذا السلطان ، وأن يفعل به قال : فخرجنا حجاجا فنزلنا في بعض القرى وفيها عامل – يعنى لأمير اليمن – يقال له ابن نجيح وكان من أخبث عمالهم ، فشهدنا صلاة الصبح في المسجد فجاء ابن نجيح فقعد بين يدى طاووس فسلم عليه فلم يجبه ثم كلمه فأعرض عنه ثم عدل إلى الشق الآخر فأعرض عنه ، فلما رأيت ما به قمت إليه فمددت يده وجعلت أسائله وقلت له : إن أبا عبدالرحمن لم يعرفك فقال العامل : بلى معرفته لي فَعَلَتْ ما رأيت، قال فمضى أبى لا يقول لي شيئا فلما دخلت المنزل قال : أى لُكَعُ[1] بينما أنت زعمْتَ تريد أن تخرج عليهم بسيفك لم تستطع أن تحبس عنه لسانك[2] .

★ ★ ★

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤١/٥) .

(٢) أى لكَعُ : يعنى يا لُكَعُ ولفظ أىْ حرف نداء وهو نداء ذم كما ترى .

بين طاووس
وسليمان بن عبد الملك

جاء الخليفة سليمان بن عبد الملك يوما إلى طاووس ، فلم ينظر إليه ، فقيل له فى ذلك .

فقال : أردت أن يعلم أن لله رجالا يزهدون فيما لديه[1] .

* * *

(١) وفيات الأعيان (٢/٤٢٤) .

بين طاووس والمنصور

ورد أن أبا جعفر المنصور استدعى طاووس أحد علماء عصره ومعه مالك بن أنس رحمهما الله تعالى فلما دخلا عليه ، أطرق ساعة ثم التفت إلى طاووس .

فقال له : حدثنى عن أبيك ياطاووس (ابن كيسان التابعى) .

فقال : حدثنى أبى أن رسول الله ﷺ قال : « **أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل أشركه الله فى حكمه فأدخل عليه الجور فى عدله** » .

فأمسك ساعة .

قال مالك : فضممْتُ ثيابى مخافة أن يملأني من دمه[1] ثم التفتَ إليه أبو جعفر .

فقال عظني ياطاووس .

قال : نعم ياأمير المؤمنين إن الله تعالى يقول : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذى الأوتاد الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد ﴾ .

---

(١) مخافة أن يملأنى من دمه : أىْ خفت أن يقتله أبو جعفر المنصور فيصيب دمُه ثوبى.

قال مالك : فضممت ثيابي مخافة أن يملأني من دمه فأمسك عنه ثم قال : ناولني الدواة فأمسك ساعة حتى اسود ما بيننا وبينه . ثم قال : يا طاووس ناولني هذه الدواة .

فأمسك عنه .

فقال : ما يمنعك أن تناولينها ؟ .

فقال : أخشى أن تكتب بها معصية لله فأكون شريكك فيها فلما سمع ذلك قال : قوما عني .

قال طاووس : ذلك ما كنا نبغ منذ اليوم . قال مالك : فما زلت أعرف لطاووس فضله[1] .

* * *

(١) تذكرة الحفاظ (١/١٦٠) وفيات الأعيان (٢/٥١١) .

بين ابن أبى ذؤيب
وأبى جعفر المنصور

عن الإمام الشافعى رحمه الله تعالى ، قال حدثنى عمى محمد بن على قال : إنى لحاضر مجلس أمير المؤمنين أبى جعفر المنصور وفيه ابن أبى ذؤيب وكان والى المدينة الحسن بن يزيد .

قال : فأتى الغفاريون فشكوا إلى أبى جعفر شيئا من أمر الحسن ابن يزيد .

فقال الحسن : هذا ياأمير المؤمنين سل عنهم ابن أبى ذؤيب .

قال : نسأله .

فقال : ما تقول فيهم ياابن أبى ذؤيب .

فقال : أشهد أنهم تحطم فى أعراض الناس ، كثير الأذى عليهم .

فقال أبو جعفر : أفسمعتم ؟ .

فقال الغفاريون : ياأمير المؤمنين سله عن الحسن بن يزيد .

فقال : ياابن أبى ذؤيب ما تقول في الحسن بن يزيد ؟ .

فقال : أشهد أنه يحكم بغير الحق ويتبع هواه .

فقال : سمعت ياحسن ماقال فيك وهو الشيخ الصالح .

فقال : ياأمير المؤمنين سله عن نفسك ؟ .

فقال : ما تقول فيّ ؟ .

قال : تعفينى ياأمير المؤمنين .

قال : أسألك بالله إلا أخبرتني ؟ .

قال : تسألنى بالله كأنك لم تعرف نفسك!! .

قال : والله لتخبرنى ؟ .

قال : أشهد أنك أخذت المال من غير حقه فجعلته فى غير أهله وأشهد أنك الظلم ببابك فاش[١] .

قال : فجاء أبو جعفر من موضعه حتى وضع يده فى قفا ابن أبى ذؤيب فقبض عليه .

ثم قال : أما والله لولا أنى جالس ههنا لأخذت فارس والروم والديلم والترك بهذا المكان منك .

قال : فقال ابن أبى ذؤيب : ياأمير المؤمنين قد ولى أبو بكر وعمر وأخذا الحق وقسما بالسوية وأخذا بأقفاء فارس والروم وأصغرا أنوفهم[٢] .

قال : فخلى أبو جعفر قفاه وخلى سبيله .

قال : والله لولا أنى أعلم أنك صادق لقتلتك .

---

(١) فاش : منتشر كثير .
(٢) أصغرا أنوفهم : أذلوهم .

فقال ابن أبى ذؤيب : والله ياأمير المؤمنين إنى لأنصح لك من ابنك المهدى .

قال : فبلغنا أن ابن أبى ذؤيب لما انصرف من مجلس المنصور لقيه سفيان الثورى .

فقال : ياأبا الحارث : لقد سرني ما خاطبت به هذا الجبار ولكن ساءني قولك له « ابنك المهدى » .

فقال : يغفر الله لك ياأبا عبد الله كلنا مهدى كلنا كان فى المهد[1] .

* * *

(١) الأحياء الجزء السابع ص ٢٧ .

بين الحسن البصري
والحجاج الثقفي

لما ولي الحجاج بن يوسف الثقفى العراق وطغى فى ولايته وتجبر كان الحسن البصرى أحد الرجال القلائل الذين تصدوا لطغيانه وجهروا بين الناس بسوء أفعاله وصدعوا بكلمة الحق فى وجهه من ذلك أن الحجاج بنى لنفسه بناء فى واسط فلما فرغ منه نادى فى الناس أن يخرجوا للفرجة عليه والدعاء له بالبركة .

فلم يشأ الحسن أن يفوت على نفسه فرصة اجتماع الناس هذه فخرج إليهم ليعظهم ويذكرهم ويزهدهم بعرض الدنيا ويرغبهم بما عند الله عز وجل ولما بلغ المكان ونظر إلى جموع الناس وهى تطوف بالقصر المنيف مأخوذة بروعة بنائه مدهوشة بسعة أرجائه مشدودة إلى براعة زخارفه ، وقف فيهم خطيبا وكان فى جملة ما قاله : لقد نظرنا فيما ابتنى أخبث الأخبثين فوجدنا أن فرعون شيد أعظم مما شيد وبنى أعلى مما بنى ثم أهلك الله فرعون وأتى على ما بنى وشيد .

ليت الحجاج يعلم أن أهل السماء قد مقتوه وأن أهل الأرض قد غروه ومضى يتدفق على هذا المنوال حتى أشفق عليه أحد السامعين من نقمة الحجاج فقال له : حسبك ياأبا سعيد .. حسبك ، فقال له الحسن : لقد أخذ الله الميثاق على أهل العلم ليبيننه للناس ولايكتمونه .

وفى اليوم التالى دخل الحجاج إلى مجلسه وهو يتميز من الغيظ وقال لجّلاسه : تبًّا لكم وسُحْقًا ، يقوم عبد من عبيد أهل البصرة ويقول فينا ما شاء أن يقولَ ثم لا يجد فيكم من يردُّه أو ينكرُ عليه والله لأسقَينَّكم من دمه يا معشرَ الجبناء ثم أمر بالسيف والنطع فأُحْضِرَا ، ودعا بالجَلَّاد فمثُل واقفا بين يديه ثم وجَّه إلى الحسن بعض شرطة وأمرهم أن يأتوا به وما هو إلا قليلٌ حتى حضر الحسن فشخصت إليه الأبصار ووجفت عليه القلوب فلما رأى الحسنُ السيفَ والنطعَ والجلَّاد حرك شفتيه ثم أقبل على الحجاج وعليه جلال المؤمن وعزة المسلم ووقار الداعية إلى الله .

فلما رآه الحجاج على حاله هذا هابه أشد الهيبة وقال له ها هنا يا أبا سعيد ... ها هنا ... ثم مازال يوسع له ويقول : ها هنا ... والناس ينظرون إليه فى دهشة واستغراب حتى أجلسه على فراشه .

ولما أخذ الحسن مجلسه التفت إليه الحجاج وجعل يسأله عن بعض أمور الدين ، والحسن يجيبه عن كل مسألة بجَنَانٍ ثابت[1] وبيان ساحر وعلمٍ واسع . فقال له الحجاج : أنت سيدُ العلماء يا أبا سعيد ثم دعا بغالية وطيَّب له بها لحيته وودَّعَه .

ولما خرج الحسن من عنده تبعه حاجب الحجاج وقال له : يا أبا سعيد لقد دعاك الحجاج بغير ما فعل بك وإنى رأيتك عندما أقبلت ورأيت السيف والنطع فحركت شفتيك فماذا قلت ؟.

فقال الحسن : لقد قلت يا وليَّ نعمتى وملاذى عند كُربتى اجعل نقمته بردا وسلاما علىَّ كما جعلت النار بردا وسلاما على إبراهيم[2] .

---

(١) جَنَان : قلْب .

(٢) صور من حياة التابعين (٢/١٧) .

بين أبي يوسف القاضي
وهارون الرشيد

عندما طلب هارون الرشيد من أبي يوسف القاضي وضع كتاب الخراج لم يفت القاضي أن يقدم النصيحة للخليفة في مقدمة الكتاب فقال يا أمير المؤمنين : إن الله وله الحمد ، قد قلدك أمرًا عظيمًا ثوابه أعظم الثواب ، وعقابه أشد العقاب ، قلدك أمر هذه الأمة ، فأصبحت وأمسيت وأنت تبنى لخلق كثير ، قد استرعاكهم الله وائتمنك عليهم وابتلاك بهم وولاك أمرهم وليس يلبث البنيان إذا أسس على غير التقوى أن يأتيه الله من القواعد فيهدمه على من بناه وأعان عليه . فلا تضيعن ما قلدك الله من أمر هذه الأمة والرعية ، فإن القوة فى العمل بإذن الله ، لا تؤخر عمل اليوم إلى الغد ، فإنك إذا فعلت ذلك أضعت ، إن الأجل دون الأمل فبادر الأجل بالعمل فإنه لا عمل بعد الأجل ، إن الرعاة مؤدون إلى ربهم ما يؤدى الراعي إلى ربه فأتم الحق فيما ولاك الله وقلدك ولو ساعة من نهاره فإنَّ أسعد الرعاة عند الله يوم القيامة راع سعدت به رعيته ، ولا تَزغْ فتزيغَ رعيتك وإياك والأمر بالهوى والأخذ بالغضب وإذا نظرت إلى أمرين ، أحدهما للآخرة والآخر للدنيا فاختر أمر الآخرة على الدنيا ، فإن الآخرة تبقي والدنيا تفني ولكن من خشية على حذر واجعلْ الناس عندك فى أمر الله سواءً القريب والبعيد ولا تخف فى الله لومة لائم واحذر فإن الحذر بالقلب وليس باللسان ، واتق الله فإنما التقوى بالتوق ومن يتقى الله يتقه .

إنى أوصيك يا أمير المؤمنين بحفظ ما استحفظك ، ورعاية ما استرعاك الله ، وألّا تنظر فى ذلك إلا إليه وله ، فإنك إنْ لا تفعل تتوعر[1] عليك سهولة الهدى وتعمى فى عينيك وتتخفى رسومه ويضيق عليك رحْبُه وتنكر منه ما تعرف وتعرف منه ما تنكر ، فخاصم نفسك خصومة من الفلج لها لا عليها ، فإن الراعى المضيع يضمن ما هلك على يديه مما لو شاء رده عن مواطن الهلكة بإذن الله .

وأورده أماكن الحياة والنجاة فإن ترك ذلك أضاعه وإن تشاغل بغيره كانت الهلكة عليه أسرع وبه آخَذُ وإذا أصلح . كان أسعد من هنالك بذلك ووفاه الله أضعاف ما وفى له .

فاحذر أن تضيع رعيتك فيستوفي ربُّها حقها منك ويضيعَك بما أضعت أجرك ، وإنما يدعم البنيان قبل أن ينهدم وإنما لك من عملك ما عملت فيمن ولاك الله أمره فلست تنسى ولا تغفل عنهم وعما يصلحهم فليس يغفل عنك ولا يضيع حقك من هذه الدنيا فى هذه الليالى والأيام كثرة تحريك لسانك فى نفسك بذكر الله تسبيحًا وتهليلاً وتمجيدًا والصلاة على رسول الله ﷺ نبى الرحمة وإمام الهدى[2] .

---

(١) تتوعّر : تكون شاقةً عليك .

(٢) مقدمة كتاب الخراج للإمام أبى يوسف القاضى .

بين أبي حنيفة والمنصور

انتقض أهل الموصل على أبي جعفر المنصور ، وقد اشترط المنصور عليهم أنهم إن انتقضوا تحل دماؤهم له ، فجمع المنصور الفقهاء وفيهم الإمام أبو حنيفة .

فقال : أليس صحيحًا أنه عليه السلام قال : « **المؤمنون عند شروطهم** » وأهل الموصل قد شرطوا ألا يخرجوا عليَّ وقد خرجوا على عاملى وقد حلت دماؤهم .

فقال رجل منهم : يدك مبسوطة عليهم وقولك مقبول فيهم فإن عفوت فأنت أهل العفو وإن عاقبت فبما يستحقون .

فقال لأبى حنيفة ، ما تقول أنت يا شيخ ؟ ألسنا فى خلافة نبوة وبيت أمان ؟

فأجاب أنهم شرطوا لك مالا يملكون (وهو استحلال دمائهم) وشرطْتَ عليهم ما ليس لك ، لأن دم المسلم لا يحل إلا بأحد معان ثلاث[1] .

---

(١) يشير الإمام أبى حنيفة رحمه الله تعالى إلى قوله عليه الصلاة والسلام : « **لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزانى والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة** » متفق عليه .

فأمرهم المنصور بالقيام فتفرقوا فدعاه وحده .

فقال : يا شيخ . القول ما قلت انصرف إلى بلادك ولا تُفْتِ الناس بما هو شَيْن على إمامك فتبسط أيدي الخوارج[1] .

* * *

(١) المناقب لابن الجوزى ح ٢ ص ١٧ .

بين أبى حنيفة والمنصور

أراد أبو جعفر المنصور أن يولي أبا حنيفة القضاء فأبى فحلف عليه ليفعلَنَّ ، فحلف أبو حنيفة ألا يفعلَ فقال الربيع بن يونس الحاجب ألا ترى أمير المؤمنين يحلف .

فقال أبو حنيفة : أميرُ المؤمنين على كفارة أيْمانه أقدرُ منى على كفارة أيمانى ، وأبى أن يلبى الأمر .

قال الربيع : رأيت المنصور ينازل أبا حنيفة فى أمر القضاء وهو يقول : اتق الله ولا تُرْعِى أمانتك إلَّا من يخاف الله ، والله ما أنا مأمونُ الرضا فكيف أكون مأمونَ الغضب ؟ لو اتجه الحكم عليك ، ثم هددتنى أن تغرقنى فى الفرات أو تلى الحكم لأخترت أن أغرق ، ولك حاشية يحتاجون من يكرمهم لك ولا أصلح لذلك فقال له : كذبْتَ أنت تصلح فقال له : قد حكمْتَ لى على نفسك كيف يحل لك أن تولى قاضيا على أمانتك وهو كذَّاب[1] .

* * *

(١) وفيات الأعيان (٥/٤٠٧) .

بين الأوزاعى وعبدالله بن على

لما دخل عبدالله بن على دمشق ، بعد أن أجلى بنى أمية عنها ، طلب الأوزاعى ، فتغيب عنه ثلاثة أيام ثم حضر بين يديه قال الأوزاعى : دخلت عليه وهو على سرير وفى يده خيزُرانة والمسوَّدة عن يمينه وشماله معهم السيوف مُصْلَتَه ، والغمد والحديد ، فسلمت عليه فلم يرد . نكت بتلك الخيزرانة التى فى يده .

ثم قال : يا أوزاعي ما ترى فيما صنعناه من إزالة أيدى أولئك الظلمة عن العباد والبلاد ؟ أجهادًا ورباطًا هو ؟

فقلت : أيها الأمير سمعت يحيى بن سعيد الأنصارى التيمى يقول سمعت محمد بن إبراهيم يقول سمعت علقمة بن وقاص يقول قال : عمر بن الخطاب سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه** »[1] .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

فنكتَ بالخيزرانة أشد ما ينكت وجعل من حوله يقبضون أيديهم على قبضات سيوفهم .

ثم قال : يا أوزاعي ما تقول فى دماء بني أمية .

فقلت : قال رسول الله ﷺ : « **لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث ، النفس بالنفس والثيب الزاني والتارك لدينه المفارق للجماعة** »(١) .

فنكت أشد من ذلك .

ثم قال : ما تقول في أموالهم .

قلت : إنْ كانت فى أيديهم حراما فهى حرام عليك أيضا وإن كانت حلالاً فلا تحل لك إلّا بطريق شرعى .

فنكت أشد ما كان ينكت قبل ذلك .

ثم قال : ألا نوليك القضاءَ .

قلتُ : إن أسلافَكَ لم يكونوا يشُقُّون عليَّ فى ذلك إنى أحب مَا ابتدأونى به من الإحسان .

فقال : كأنك تحب الانصراف ؟

فقال : إن ورائى حرما وهُنَّ يحتجْن القيام عليهن وسترَهن وقلوبهُن مشغولة بسببى .

انتظرت رأسى أن يسقط بين يدى فأمرنى بالانصراف(٢)

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) مجلة العربى العدد (٧١) سنة ١٩٦٤ م . الأوزاعى فقيه أهل الشام .

بين الأوزاعى والمنصور

وهذا الإمام عبدالرحمن بن عمرو الأوزاعى قال محدثا عن نفسه ، بعثَ إليَّ أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين وأنا بالساحل ، فأتيته ، فلما وصلْتُ إليه سلمْتُ عليه بالخلافة ، فردَّ عليَّ واستجلسنى ، ثم قال لى : ما الذى ابطأ بك عنا يا أوزاعى .

قُلْتُ : وما الذى تريد يا أم المؤمنين .

قال : أريد الأخذ عنكم والاقتباس منكم .

قلت : انظر يا أمير المؤمنين أن لا تجهل شيئًا مما أقول .

قال : وكيف أجهله وأنا أسألك عنه وفيه وجهت إليك وأقدمتك له .

قلت : أخاف أن تسمعه ثم لا تعمل به[1] .

قال الأوزاعى فصاح بى الربيع وأهوى بيده إلى السيف فانتهره المنصور .

وقال هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة .

فطابت نفسى وانبسطت فى الكلام .

---

(١) كلمة الحجاج حشو .

فقلت : يا أمير المؤمنين حدثنى مكحول عن عطية بن بشر قال : قال رسول الله ﷺ : « **أيمَّا عبدٍ جاءته موعظةٌ من الله فى دينه فإنها نعمة من الله سِيقَتْ إليه فإن قبلها بشكرٍ وإلَّا كانَتْ حجةً من الله عليه ليزداد إثمًا ويزدادَ اللهُ بها سخطًا عليه** » .

يا أمير المؤمنين : من كره الحق فقد كره الله إنَّ الله هو الحق المبين ، إن الذي لين قلوب أمتكم لكم حين ولاكم أمورهم لقرابتكم من رسول الله ﷺ وقد كان بهم رؤوفا رحيما مواسيا لهم بنفسه من ذات يده محمودًا عند الله وعند الناس فحقيق بك أن تقوم له بالحق وأن تكون بالقسط له فيهم قائمًا ، ولعوراتهم ساترًا ، ولا تغلق عليك دونهم الأبواب ولا تقيم دونهم الحجاب تبتهج بالنعمة وتبتئس بما أصابهم من سوء .

يا أمير المؤمنين : قد كنتَ فى شاغلٍ من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبحت تملكهم أحمرهم وأسودهم ومسلمهم وكافرهم . وكلٌ له عليك نصيب من العدل ، فكيف إذا انبعث منهم فئام وراء فئام ، وليس منهم أحد إلا وهو يشكو بليةً أَدْخَلْتَها عليه . وظلمةً سُقْتَها إليه .

يا أمير المؤمنين : إن الملك لو بقى لمن قبلك لم يصل إليك وكذا لا يبقى لك كما لم يبق لغيرك .

يا أمير المؤمنين : بلغنى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لو ماتت سخلةٌ على شاطىء الفرات ضيعة لخشيت أن أُسأل عنها فكيف بمن حُرِمَ عدلَك وهو على بساطك. يا أمير المؤمنين : قد سأل جدك العباس النبى ﷺ إمارة مكة أو الطائف أو اليمن فقال النبى ﷺ : « **يا عباس يا عمَّ النبى نفسٌ تحييها خير من إمارةٍ لا تحصيها** » نصيحةً منه لعمه وشفقةً عليه وأخبره أنه لا يغنى عنه من الله شيئًا إذ أوحى الله

إليه ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ فقال يا عباس يا صفيةُ عمةَ النبى ويا فاطمةُ بنتَ محمد إنى لست أغنى عنكم من الله شيئًا لى عملى ولكم عملكم .

وقد قال عمر بن الخطاب : الأمراء أربعة :

فأمير قوى ظلف نفسه وعماله فذلك كالمجاهد فى سبيل الله ، يد الله باسطة عليه بالرحمة وأميرٌ فيه ضعف ظلف نفسه وأرتع عماله لضعفه فهو على شفا هلاك إلَّا أن يرحمه الله وأمير ظلف عماله وأرتع نفسَه فذلك الحُطَمة الذى قال فيه الرسول ﷺ : « **بشر الرعاةَ الحطمةَ** »[1] فهو الهالك وحده وأمير أرتع نفسه وعماله فهلكوا جميعًا . ثم قال يا أمير المؤمنين إن أشد الشدة القيام لله بحقه وإن أكرم الكرم عند الله التقوى ، وإنه من طلب العز بطاعة الله رفعه الله وأعزه ومن طلبه بمعصية الله أذله الله ووضعه ، فهذه نصيحتى إليك والسلام عليك . ثم نهضت فقال لى إلى أين :

فقلت إلى الولد والوطن بإذن أمير المؤمنين إن شاء الله .

فقال : أذنت لك وشكرت نصيحتك وقبلتها .

قال محمد بن مصعب فأمر له بمال يستعين به على خروجه فلم يقبلْه .

وقال : أنا فى غنى عنه وما كنت لأبيع نصيحتى بعَرِضِ الدنيا .

وعرف المنصور مذهبه فلم يَجِدْ[2] عليه فى ذلك[3] .

---

(١) والحطمة : اسم من أسماء النار لأنها تحطم ما يلقى فيها .

(٢) لم يَجِدْ عليه : لم يغضب عليه .

(٣) روى هذه النصيحة الحافظ ابن أبى الدنيا فى مواعظ الخلفاء .

بين سفيان الثورى والخليفة المهدى

قال الإمام سفيان الثورى : لما حج المهدى قال لابد لي من سفيان فوضعوا لي الرصد حول البيت فأخذونى بالليل فلما مثلت بين يديه قال لى : لأى شيء لا تأتينا فنستشيرك فى أمرنا فما أمرتنا من شيء صرنا إليه وما نهيتنا عن شيء انتهينا عنه .

فقلت له : كم أنفقت فى سفرك هذا ؟

قال : لا أدرى لى أمناء ووكلاء .

قلت : فما عذرك غدًا إذا وقفت بين يدى الله تعالى فسألك عن ذلك . لكنَّ عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما حجَ قال لغلامه كم أنفقْت فى سفرنا هذا ؟

قال : يا أمير المؤمنين ثمانيةَ عشرَ دينارًا .

فقال : ويحك أجحفنا بيت مال المسلمين .

وقد علمت ما حدثنا به منصور عن الأسود عن علقمة عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : رب متخوضٍ في مال الله ومال رسوله فيما شاءت نفسه له النار غدًا ، فيقول أبو عبيد الكاتب : أمير المؤمنين يُستقَبلُ بمثل هذا ؟

فيجيبه سفيانُ بقوة المؤمن وعزة المسلم – أسكت إنما أهلك فرعون هامان وهامان فرعون[1] .

وهذا موقف ثان له :

في يوم قال الخليفة المهدى للخيزران : أريد أن أتزوج فقالت له : لا يحل لك أن تتزوج عليَّ ، قال : بلى . قالت له : بيني وبينك من شئت .

قال : أترضين سفيان الثورى .

قالت : نعم .

فوجه إلى سفيان : فقال : إنَّ أم الرشيد تزعم أنه لا يحل لى أن أتزوج عليها وقد قال تعالى : ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ﴾ ثم سكت فقال له سفيان أتم الآية يريد قوله تعالى : ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾ ، وأنت لا تعدلُ ، فأمر له بعشرة آلاف درهم فأبى أن يقبلها[2] .

وهذا موقف ثالث له :

قال القعقاع بن حكيم : كنت عند المهدى وأتى سفيان الثورى كبير علماء المسلمين فى عصره فلما دخل عليه سلَّم ولم يسِلّمْ بالخلافة والربيع قائم على رأسه متكئا على سيفه يرقب أمره فأقبل عليه المهدى بوجه طلق .

---

(١) المسند للأستاذ : أحمد شاكر الجزء الأول – وفيات الأعيان (٣٨٧/٢) .

(٢) وفيات الأعيان (٣٨٩/٢) .

وقال له : يا سفيانُ انظر هَا هنا وها هنا وتظن أن لو أردناك بسوء لم نقدر عليك ، فقد قدرنا عليك الآن ، أفما تخشى أن نحكم فيك بهوانا .

قال سفيان : إن تحكمْ فيَّ يحكمْ فيك ملكٌ قادرٌ يفرق بين الحق والباطل .

فقال الربيع له : يا أمير المؤمنين ألهذا الجاهل أن يستقبلك بمثل هذا ؟

أتأذن لى أن أضرب عنقه .

فقال له المهدى : اسكتْ ويلك وهل يريدُ هذا وأمثالُه إلَّا أن نقتلهم فنشقى لسعادتهم اكتبوا عهدَهُ على قضاء الكوفة على أن لا يعترض عليه فى حكم فكتب عهدَهُ ورفعه إليه فأخذه وخرج ورمى به فى دجلة وغاب عن أنظار الناس فطُلِبَ فى كل بلد فلم يوجدْ فتولى القضاء مكانه شريك النخعى(١) .

وهذا موقف رابع له :

دخل على أبى جعفر المنصور ، العالم الجليل سفيانُ الثورى وسأله أن يرفع إليه حاجته فأجابه ، اتق الله فقد ملأْتَ الأرضَ ظلما وجوْرًا فطأطأ المنصور رأسه ثم أعاد عليه السؤال ، فأجابه إنما نزلْتَ هذه المنزلةَ بسيوف المهاجرين والأنصار وأبناؤهم يموتون جوعا ، فاتق الله وأوصل إليهم حقوقهم فطأطأ المنصور شاكرًا ثم كرر السؤال ولكن سفيان تركه وانصرف(٢) .

---

(١) تذكرة الحفاظ (١/١٦٠) ، وفيات الأعيان (٢/٣٩٠) .

(٢) الأحياء الجزء الخامس ص ١٢٠ .

بين حماد بن سلمة
ومحمد بن سليمان

قال ابن سليمان ، دخلت على حماد بن سلمة فاذا ليس في البيت إلا حصير وهو جالس وفي يديه مصحف يقرأ فيه وجراب فيه علمه ومطهرة يتوضأ منها ، فبينما أنا جالس إذ دق الباب .

فقال حماد : ياحبيبة اخرجى فانظرى من هذا ؟ .

فقالت : رسول محمد بن سليمان إلى حماد بن سلمه فأذن له بالدخول .

فقال : بعد أن سلّم أما بعد :فصبَّحك الله بما صبح به أولياءه وأهل طاعته .

وقعت مسألة فأتنا نسألك عنها والسلام .

فقال : ياحبيبة هلم الدواة .

ثم قال لى : اقلب كتابه ، واكتب أما بعد .

فأنت صبحك الله بما صبح به أولياءه وأهل طاعته إنا أدركنا العلماء وهم لايأتون لأحد فإن وقعت لك مسألة فأتنا وسل ما بدالك

وإن أتيتنى فلا تأتنى بخيلك ورجلك فلا أنصحك ولا أنصح إلا تقيا والسلام .

فبينما أنا جالس إذ دق الباب .

فقال : ياحبيبة اخرجى فانظرى من هذا ؟ .

قالت : محمد بن سليمان .

قال : قولى له يدخل وحده فدخل وجلس بين يديه وبدأ .

فقال : مالى إذا نظرت فيك امتلأت منك رعبا .

قال حماد : حدثنى ثابت البنانى قال سمعت أنسا يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن العالم إذا أراد بعلمه وجه الله هابه كل شىء وإذا أراد به أن يكنز الكنوز هاب من كل شىء** » .

فقال : ما تقول رحمك الله فى رجل له ابنان وهو على أحدهما أرضى فأراد أن يجعل له فى حياته ثلثى ماله ؟ .

فقال حماد : لا يفعل رحمك الله فإنى سمعت أنسا يقول ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إذا أراد الله أن يعذب عبدا من عباده فى حياته وفقه إلى وصية جائرة** » .

فعرض عليه مالا فلم يقبل وخرج(١) .

---

(١) الإسلام بين العلماء والحكام ص ٩٩ .

بين صالح المرى والمهدى

بعث المهدى إلى صالح المرى ، قال صالح فلما دخلت عليه قلت يأمير المؤمنين احمل لله ما أكلمك به اليوم فإن أولى الناس بالله أحملهم لغلظه النصيحة فيه وجدير بمن له قرابة برسول الله ﷺ أن يرث أخلاقه ويأتم بهديه ، وقد ورثك الله من فهم العلم وإنارة الحجة ميراثا قطع به عذرك . فمهما ادعيت من حجة ، أو ركبت من شبهة لم يصح لك فيها برهان من الله ، حل بك من سخط الله بقدر ما تجاهلته من العلم أو أقدمت عليه من شبهة الباطل واعلم أن رسول الله ﷺ خصم من خالف فى أمته ، يبتزها أحكامها ، ومن كان محمد ﷺ خصنمه كان الله خصمه فأعد لمخاصمة الله ومخاصمة رسوله حججا تضمن لك النجاة ، أو استسلم للهلكة .

واعلم أن أبطأ الصرعى نهضة صريع الهوى وأن أثبت الناس قدما يوم القيامة آخذهم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ فمثلك لا يكابر بتجديد المعصية ولكن تمثل له الإساءة إحسانا ، ويشهد عليه خونة العلماء وبهذه الحبالة تصيدت الدنيا نظراءك فأحسن الحمل فقد أحسنت إلبك الأداء .

فبكى المهدى ثم أمر له بشىء فلم يقبله .

وحكى بعض الكتاب أنه رأى هذا الكلام مكتوبا فى دواوين المهدى[1] .

* * *

(١) وفيات الأعيان (٢/٤٩٤) .

بين الإمام مالك
وجعفر بن سليمان

سعى بالإمام مالك إلى جعفر بن سليمان بن على بن عبد الله ابن عباس وهو ابن عم أبي جعفر المنصور وقالوا له : إنه لا يرى أيمان بيعتكم هذه بشيء ، فغضب جعفر ودعا به وجرده وضربه بالسياط ، ومدت يده حتى انخلعت كتفه وارتكب منه أمرا عظيما فلم يزل بعد ذلك الضرب فى علو ورفعة .

وذكر ابن الجوزى فى (شذور العقود) فى سنة سبع وأربعين ومائة وفيها ضرب مالك بن أنس سبعين سوطا لأجل فتوى لا توافق غرض السلطان[1] .

* * *

(١) وفيات الأعيان (١٣٧/٤) .

بين الفضيل بن عياض
والرشـــيد

قال الفضيل بن الربيع : كنت بمنزلى ذات يوم وقد خلعت ثيابى وتهيأت للنوم ، فإذا بقرع شديد على بابى فقلت فى قلق: مَنْ هذا ؟

قال الطارق : أجب أمير المؤمنين ، فخرجت مسرعا أتعثر فى خطوى فإذا بالرشيد قائما على بابى وفى وجهه تهجم حزين فقلت ياأمير المؤمنين لو أرسلت إلى أتيتك .

فقال : ويحك قد حاك فى نفسى شىء أطار النوم من أجفانى وأزعج وجدانى شىء لايذهب به إلا عالم تقى من زهادك فانظر لى رجلا أسأله .

ثم يقول ابن الربيع حتى جئت به إلى الفضيل بن عياض .

فقال الرشيد : أمض بنا إليه ، فأتيناه ، وإذا هو قائم يصلى فى غرفته وهو يقرأ قوله تعالى : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ فقال الرشيد : إن انتفعنا بشىء فبهذا .

فقرعت الباب .

فقال الفضيل : من هذا ؟ .

قلت : أجب أمير المؤمنين .

فقال : مالى ولأمير المؤمنين .

فقلت : سبحان الله أما عليك طاعته .

فنزل ففتح الباب ثم ارتقى الغرفة فأطفأ السراج ، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا الغرفة فجعلنا نجول عليه بأيدينا فسبقت كف الرشيد كفى إليه .

فقال : يا لها من كف ما ألينها إن نجت من عذاب الله تعالى غدا قال ابن الربيع : فقلت في نفسى ليكلمنه الليلة بكلام نقى من قلب تقى .

فقال الرشيد : خذ فيما جئناك له يرحمك الله .

فقال الفضيل بن عياض : وفيما جئت وقد حملت نفسك ذنب الرعية التى سمتها هوانا وجميع من معك من بطانتك وولاتك تضاف ذنوبهم إليك يوم الحساب ، فبك بغواويك جاروا وهم مع هذا أبغض الناس لك وأسرعهم فرارا منك يوم الحساب حتى لو سألتهم عند انكشاف الغطاء عنك وعنهم أن يحملوا عنك سقطا – جزءا – من ذنب ما فعلوه ولكان أشدهم حبا لك أشدهم هربا منك .

ثم قال : إن عمر بن عبدالعزيز لما ولى الخلافة دعا سالم بن عبدالله ومحمد بن كعب ورجاء بن حيوة وهم ثلاثة من العلماء الصالحين فقال لهم : إنى قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا على فعد الخلافة بلاء وعددتها أنت وأصحابك نعمة .

فقال سالم بن عبدالله : ان أردت النجاة عدا من عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك أبا وأوسطهم عندك أخا وأصغرهم عندك ابنا فوقر أباك وأكرم أخاك وتحنن على ولدك .

وقال رجاء بن حيوة : إن أردت النجاة غدا من عذاب الله فأحب للمسلمين ماتحب لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك ثم مت إن شئت وإنى أقول لك ياهارون إنى أخاف عليك أشد الخوف يوما تذل فيه الأقدام فبكى هارون .

قال ابن الربيع : فقلت ارفق بأمير المؤمنين .

فقال : تقتله أنت وأصحابك وأرفق به أنا .

ثم قال : ياحسن الوجه أنت الذى يسألك الله عزوجل عن هذا الخلق يوم القيامة فإن استطعت أن تقي هذا الوجه فافعل وإياك أن تصبح أو تمسى وفى قلبك غش لأحد من رعيتك فإن النبى ﷺ قال : « **من أصبح لهم غاشا لم يرح رائحة الجنة** »[1] .

فبكى الرشيد .

ثم قال : هل عليك دين ؟ .

فقال : نعم دين لربى لم يحاسبنى عليه فالويل لى إن سألنى والويل لى إن ناقشنى والويل لى إن لم أُلهَمَ حُجتى .

قال الرشيد : إنما أعنى دين العباد .

---

(١) رواه البخارى (١١٢/١٣) (١٤٢) فى كتاب الإيمان .

فقال : إن ربى لم يأمرنى بهذا وقد قال عزوجل : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ .

فقال الرشيد : هذه ألف دينار خذها وأنفقها على عيالك وتقو بها على عبادتك .

قال : سبحان الله . أنا أدلك على طريق النجاة وأنت تكافئنى بمثل هذا .

قال ابن الربيع : فخرجنا من عنده .

فقال هارون الرشيد : إذا دللتنى على رجل فدلنى على مثل هذا ، هذا سيد المسلمين اليوم[١] .

ويحكى أن الرشيد قال له يوما : ما أزهدك ! فقال الفضيل : أنت أزهد منى ، قال : وكيف ذلك ؟ .

قال : لأنى أزهد فى الدنيا ، وأنت تزهد فى الآخرة ، والدنيا فانية والآخرة باقية[٢] .

---

(١) سير أعلام النبلاء (٨/٣٧٨) وقال الذهبى : حكاية عجيبة والعلائى غير ثقة . قلت : ولكن قد تابعه محمد بن سعد الحرانى ، فالله أعلم .

(٢) وفيات الأعيان (٤/٤٨) .

بين شعيب بن حرب
وهارون الرشيد

قال شعيب بن حرب : بينما أنا فى طريق مكة إذ رأيت هارون الرشيد ، فقلت فى نفسى قد وجب عليك الأمر والنهى ، فقالت لى : لاتفعل فان هذا رجل جبار ومتى أمرته ضرب عنقك .

فقلت فى نفسى : لابد من ذلك فلما دنا منى صحت : ياهارون قد أذيت الأمة وأتعبت البهائم ،فقال : خذوه ، ثم أدخلت عليه وهو على كرسى وبيده عمود يلعب به .

فقال : ممن الرجل ؟ .

فقلت : من أفناء الناس .

فقال : ممن ثكلتك أمك ؟ .

قلت : من الأبناء .

قال : وما حملك أن تدعونى باسمى ؟ .

فقلت : أنا أدعو الله سمه فأقول يالله ، يارحمن وماينكر من دعائى باسمك وقد رأيت الله سمى فى كتابه أحب الخلق إليه محمدا ، وكنى أبغض الخلق إليه أبا لهب .

فقال: أخرجوه[1] .

(١) وفيات الأعيان (٢/٤٧٠) .

بين منذر بن سعيد
والخليفة الناصر

لقد أقبل الخليفة عبدالرحمن الناصر لدين الله على عمارة الزهراء أيما إقبال وأنفق من أموال الدولة فى تشييدها وزخرفتها ما أنفق وهى فى حقيقة حالها مجموعة من القصور الفاخرة وكان يشرف بنفسه على شؤون البناء والزخرفة حتى شغله ذلك ذات مرة عن شهود صلاة الجمعة وكان منذر ابن سعيد يتولى خطبة الجمعة والقضاء ورأى خروجا من تبعة التقصير فيما أوجبه الله على العلماء ، أن يلقى على الخليفة الناصر درسا بليغا يحاسبه فيه على إسرافه وإنفاقه فى مدينة الزهراء ورأى أن يكون ذلك على ملأ من الناس فى المسجد الحامع بالزهراء فلما كان يوم الجمعة اعتلى المنبر والخليفة الناصر حاضر والمسجد غاص بالمصلين وابتدأ خطبته قرأ قوله تعالى : ﴿ أتبنون بكل ريع[1] آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ،وإذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾[2] .

ثم مضى فى ذم الإسراف على البناء بكل كلام جزل وقول شديد ثم تلا قوله تعالى : ﴿ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان حير

---

(١) الريع : المكان المرتفع والآية العلامة مس نصب وقباب .
(٢) الآية (١٣٥) سورة الشعراء .

أمن أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم والله لايهدى القوم الظالمين ﴾[1] .

وراح يحذر وينذر ويحاسب حتى ادكر من حضر من الناس وخشعوا وأخذ الناصر من ذلك بأوفر نصيب ، وقد علم أنه المقصود به فبكى وندم على تفريطه . غير أن الخليفة لم يحتمل صدره لتلك المحاسبة العلنية ولشدة ما سمع .

فقال شاكيا لولده الحَكَم : والله لقد تعمدنى بخطبته وما عنى بها غيرى فأسرف علىّ وأفرط فى تقريعى .. ثم استشاط غيظا عليه متذكرا كلماته وأراد أن يعاقبه لذلك !! .

فأقسم أن لا يصلى خلفه صلاة جمعة ، وجعل يلزم صلاتها وراء أحمد بن مطرَف خطيب جامع قرطبة .

ولكن لما رأى ولده الحكم تعلق والده بالزهراء والصلاة فى مسجدها العظيم .

قال له : (فما الذى يمنعك من عزل منذر عن الصلاة به إذا كرهته) ولكن الناصر زجره .

قائلا : (أمثل منذر بن سعيد فى فضله وخيره وعلمه (لا أم لك) يعزل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد سالكة غير القصد؟ .

هذا ما لا يكون وإنى لأستحى من الله ألا أجعل بينى وبينه فى صلاة الجمعة شفيعا مثل منذر فى ورعه وصدقه ولكن أحرجنى فأقسمت

---

(١) سورة التوبة (١٠٩) .

ولوددت أن أجد سبيلا إلى كفارة يمينى بملكى بل يصلى منذر بالناس حياته وحياتنا إن شاء الله فما أظن أنا نعتاض منه أبدا) ولما اشتدت الفجوة بين الشيخ منذر بن سعيد والخليفة عبدالرحمن الناصر نتيجة محاسبة المنذر له فى إسرافه على بناء الزهراء . أراد ولده الحكم أن يزيل ما بينهما فاعتذر له عند الخليفة .

فقال : ياأمير المؤمنين إنه رجل صالح وما أراد إلا خيراً ، لو رأى ما أنفقت وحسن تلك البنية لعذرك : ويريد بالبنية هنا القبة التى بناها الناصر بالزهراء واتخذ قراميدها من فضة وبعضها مغشى بالذهب وجعل سقفها نوعين صفراء فاقعة إلى بيضاء ناصعة يستلب الأبصار شعاعها .

فلما قال له ولده ذلك أمر ففرشت بفرش الديباج وجلس فيها لأهل دولته .

ثم قال لقرابته ووزرائه : أرأيتم أم سمعتم ملكا كان قبلى صنع مثل ما صنعت؟ .

فقالوا: لا والله ياأمير المؤمنين ، وإنك الأوحد فى شأنك .

فبينما هم على ذلك : إذ دخل منذر بن سعيد ناكسا رأسه فلما أخذ مجلسه قال له ما قال لقرابته ، فأقبلت دموع المنذر تنحدر على لحيته لسوء ما رأى .

وقال : والله ياأمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان يبلغ منك هذا المبلغ ولا أن تمكنه من قيادتك هذا التمكن مع ما آتاك الله تعالى وفضلك به على المسلمين حتى ينزلك منازل الكافرين

فاقشعر الخليفة من قوله .

وقال له : انظر ما تقول كيف أنزلنى الله منازلهم ؟ .

فقال نعم أليس الله يقول : ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ﴾[1] .

فوجم الخليفة ونكس رأسه ملياً وجعلت دموعه تنحدر على لحيته ثم أقبل على المنذر وقال له : جزاك الله خيرا وعن الدين خيرا فالذى قلت هو الحق .

ثم قام من مجلسه وأمر بنقض سقف القبة وأعاده أميرها ترابا على صفة غيرها[2] .

★ ★ ★

(١) سورة الزخرف الآية ٣٣ .

(٢) مقال بين خليفة وقاص فى مجلة الأزهر لشهر رمضان سنة ١٣٧١هـ للأستاذ : عبد الحميد العبادى ، وانظر الإسلام بين العلماء والحكام ٩٣ .

بين الكيلاني والمقتفي

وهذا الشيخ عبدالقادر الكيلانى رحمه الله تعالى يقف على منبره محاسبا المقتفى لأمر الله ومنكرا عليه تولية يحيى بن سعيد المشهور بابن المزاحم الظالم ، القضاء فقال له مخاطبا : وليت على المسلمين أظلم الظالمين وما جوابك غدا عند رب العالمين أرحم الراحمين ؟ .

فارتعد الخليفة وعزل المذكور لوقته[١] .

* * *

(١) قلائد الجواهر ص ٨ .

بين العز بن عبد السلام
ونجم الدين أيوب

كان لمماليك الأتراك نفوذ فى الدولة الإسلامية فى أواخر حكم العباسيين وامتد نفوذهم حتى أصبحوا أمراء فى الدوَلة أيام حكم نجم الدين أيوب فى مصر وكان الشيخ العز قاضيا للقضاة فيها ، وقام رحمة الله عليه ، مصلحا لأمر القضاء منفذا بحزم أحكام الشرع لا تأخذه فى ذلك لومة لائم ، فنظر فى حقيقة قضية أولئك الأمراء التى أثارها هو ثم أصدر قضاءه الآتى : .

قال السبكي[1]: ذكر كائنة الشيخ مع أمراء الدولة من الأتراك وهم جماعة ذكروا أن الشيخ لم يثبت عنده أنهم أحرار وأن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين . فبلغهم ذلك ، فعظم الخطب فيه واحتدم الأمر ، والشيخ مصمم لايصحح لهم بيعا ولاشراء ولانكاحا وتعطلت مصالحهم بذلك ، وكان من جملتهم نائب السلطنة فاشتاط غضبا واجتمعوا وأرسلوا إليه .

---

(١) الطبقات ، الجزء الخامس ص ٨٤ .

فقال : نعقد لكم مجلسا وينادى عليكم لبيت مال المسلمين ويحصل عتقكم بطريق شرعى ، فرفعوا الأمر إلى السلطان فبعث إليه فلم يرجع فجرت من السلطان كلمة فيها غلظة ، حاصلها الإنكار على الشيخ فى دخوله فى هذا الأمر ، وأنه لايتعلق به ، فغضب الشيخ وحمل حوائجه على حمار ، وأركب عائلته على حمير أخرى ، ومشى خلفهم من القاهرة قاصدا الشام فلم يصل إلى نحو نصف بريد حتى لحقه غالب المسلمين لم تكد امرأة ولا صبى ولا رجل لا يؤبه له يتخلف ولا سيما العلماء والصلحاء والتجار وأنحاؤهم فبلغ السلطان الخبر ، وقيل له متى راح ذهب ملكك قبله ، فرجع واتفقوا معه على أن ينادى على الأمراء فأرسل نائب السلطنة بالملاطفة فلم يفد فيه فانزعج النائب .

فقال : كيف ينادى علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض ؟ والله لاضربنه بسيفى هذا .

فركب بنفسه فى جماعة ، وجاء إلى بيت الشيخ ، والسيف مسلول فى يده فطرق الباب ، فخرج ولد الشيخ .. فرأى من نائب السلطنة ما رأى فعاد إلى أبيه وشرح له الحال ، فما اكترث لذلك ولاتغير . .

وقال : ياولدى أبوك أقل من أن يقتل فى سبيل الله ثم خرج كأنه قضاء الله قد نزل على نائب السلطنة فحين وقع بصره على النائب يبست يد النائب وسقط السيف منها وارتعدت مفاصله ، فبكى وسأل الشيخ أن يدعو له ، وقال ياسيدى خير أى شىء تعمل ؟ .

قال : أنادى عليكم وأبيعكم .

قال : ففيم تصرف ثمننا ؟

قال : فى مصالح المسلمين .

قال : من يقبضه .

قال : أنا فتم له ما أراد ونادى على الأمراء واحدا واحدا وغالى فى ثمنهم وقبضه وصرفه فى وجوه الخير - وهذا لم يسمع قبله أحد رحمه الله ورضى عنه[1] .

* * *

(١) راجع الإسلام بين العلماء والحكام ١٩٧ .

بين العز بن عبدالسلام
ونجم الدين أيوب

أن خلافا نشأ واشتد ،وخصاما طفق منذرا بالكيد والحرب بين الأخوين ، سلطان الشام الملك الصالح إسماعيل ، وسلطان مصر الصالح نجم الدين أيوب وقد أوجس إسماعيل خيفة من نجم الدين أيوب فاستعان بالصليبيين أعداء الإسلام ،وتحالف معهم على قتال أخيه ، وأعطاهم مقابل ذلك مدينة صيدا على رواية السبكي وكذلك قلعة صفد وغيرها على رواية المقريزى وغيره ،وأمعن إسماعيل فى هذه الخيانة فسمح للصليبيين أن يدخلوا دمشق ويشتروا منها السلاح وآلات الحرب وما يريدون ، وأثار هذا الصنيع المنكر إستياء المسلمين وعلماءهم . فهب الشيخ العز واقفا فى وجه الخيانة والخائنين ، وافتى بتحريم بيع السلاح لهم ، وصعد على منبر جامع الأموى بدمشق فى يوم الجمعة ، حيث كان خطيبه الرسمي وأعلن الفتوى وشدد فى الإنكار على السلطان وفعلته المنكره وخيانته الفظيعة للأمة الإسلامية . وقطع من الخطبة الدعاء للسلطان إسماعيل وهو بمثابة الإعلان بنزع البيعة ورفع الولاء عن السلطان يومئذ وصار يدعو بدعاء منه « اللهم أبرم لهذه الأمة إبرام رشد يعز فيه أولياؤك ويذل فيه أعداؤك ويعمل فيه بطاعتك وينهى فيه عن معصيتك « والمصلون يضجون بالتأمين

على دعائه ، ولم يكن السلطان حاضرا تلك الخطبة ، إذ كان خارج دمشق ولما أعلمه رجاله بذلك أمر بعزل الشيخ عن خطبة الجمعة واعتقاله مع صاحبه الشيخ ابن الحاجب المالكى لاشتراكه معه فى هذا الإنكار .

وكان أنصار الشيخ قد أشاروا عليه بأن يغادر البلاد وينجو بنفسه من يد السلطان وأعدوا له وسائل الهرب ، ولكنه رحمه الله تعالى أبى ذلك وألحوا عليه ، فأصر على الإباء فعرضوا عليه بأن يختبىء فى مكان أمين لا يهتدى إليه السلطان ورجاله ، فرفض هذا العرض أيضا وقال « والله لا أهرب ولا أختبىء وإنما نحن فى بداية الجهاد ولم نعمل شيئا بعد وقد وطنت نفسى على احتمال ما ألقى فى هذا السبيل والله لا يضيع عمل الصابرين » .

ثم لما قدم إسماعيل إلى دمشق أفرج عنهما بعد الاعتقال ، ولكن العز بن عبد السلام أمر بملازمة داره وأن لا يفتى ولا يجتمع بأحد البتة فاستأذنه فى صلاة الجمعة مؤتما بإمامها وأن يعيد إليه طبيب أو مزين (حلاق) إذا احتاج إليهما وأن يدخل الحمام فأذن له فى ذلك ومرت الأيام والشيخ في إقامته الجبرية وقد منع من الإفتاء والاتصال بأحد من إخوانه أو طلابه وتعطلت هوايته المفضلة وواجبه المقدس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فطلب الهجرة من دمشق قاصدا مصر . وأفرج عنه بعد محاورات ومراجعات فأقام بدمشق ثم انتزع منها إلى بيت المقدس . فوافاه الملك الناصر داود فى الفور فقطع عليه الطريق وأخذه وأقام بنابلس مدة وجدت له معه خطوب ثم انتقل إلى بيت المقدس حيث أقام مدة ثم جاء الصالح إسماعيل والملك المنصور صاحب حمص وملوك الفرنج بعساكرهم وجيوشهم إلى بيت المقدس يقصدون الديار المصرية فسير الصالح إسماعيل

بعض خواصه إلى الشيخ بمنديله ، وقال له ، تدفع منديلى إلى الشيخ وتتلطف له غاية التلطف وتستنزله وتعده بالعودة إلى مناصبه على أحسن حال فإن وافقك فتدخل به على ، وإن خالفك فاعتقله فى خيمة إلى جانب خيمتى ، فلما اجتمع الرسول بالشيخ ، شرع فى مسايسته وملاينته .

ثم قال له : بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه زيادة أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير .

فقال الشيخ : والله يا مسكين ما أرضاه أن يقبل يدى فضلا عن أن أقبل يده ، يا قوم أنتم فى واد وأنا فى واد ، الحمد لله الذى عافانى مما ابتلاكم به .

فقال الرسول : يا شيخ قد رسم لى أن نوافق على ما يطلب وإلا اعتقلتك .

فقال الشيخ : افعلوا ما بدا لكم فأخذه واعتقله في خيمة إلى جانب خيمة السلطان وكان الشيخ يقرأ القرآن فى معتقله والسلطان يسمعه .

فقال يوما لملوك الفرنج : تسمعون هذا الشيخ الذى يقرأ القرآن؟ .

فقالوا : نعم .

قال : هذا أكبر قسوس المسلمين ، قد حبسته لإنكاره على تسليمي لكم حصون المسلمين وعزلته عن الخطابة بدمشق وعن مناصبه ثم أخرجته فجاء إلى القدس وقد جددت حبسه واعتقاله لأجلكم!! .

فقالت له ملوك الفرنج : « لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجليه وشربنا مرقتها »(١) .

* * *

(١) وا إسلاماه لأحمد باكثير (١٠٠) وانظر الطبقات للسبكي.

بين النووى والظاهر بيبرس

لما خرج الظاهر بيبرس إلى قتال التتار بالشام أخذ فتاوى العلماء بجواز أخذ مال من الرعية يستنصر به على قتالهم ، فكتب له فقهاء الشام بذلك فأجازوه .

فقال : هل بقي من أحد ؟ .

فقيل له : نعم بقى الشيخ محيى الدين النووى .

فطلبه فحضر .

فقال له : اكتب خطك مع الفقهاء فامتنع .

فقال : ما سبنب امتناعك .

فقال : أنا أعرف أنك كنت فى الرق للأمير (بندقدار) وليس لك مال ثم من الله عليك وجعلك ملكا وسمعت عندك ألف مملوك ، كل مملوك له حياصة من ذهب وعندك مائتا جارية لكل جارية حق من الحلى فإذا انفقت ذلك كله وبقيت مماليكك بالبنود والصرف بدلا من الحوائص وبقيت الجوارى بثيابهن دون الحلى ، أفتيتك بأخذ المال من الرعية فغضب الظاهر من كلامه .

وقال : أخرج من بلدى — يعنى دمشق .

فقال : السمع والطاعة وحرج إلى (نوى) .

فقال الفقهاء : إن هذا من كبار علمائنا وصلحائنا وممن يقتدى به فأعده إلى دمشق .

فرسم برجوعه ، فامتنع الشيخ .

وقال : لا أدخلها والظاهر فيها ، فمات بعد شهر[١] .

* * *

(١) من أخلاق العلماء الجزء التاسع .

بين ابن تيمية وغازان

وردت الأنباء فى أواخر سنة ٦٩٨هـ بزحف غازان التترى وجيشه من إيران نحو حلب وفى وادى سليمة يوم ٢٧ ربيع الأول سنة ٦٩٩هـ التقى جمع غازان بجمع الناصر بن قلاوون وبعد معركة حامية الوطيس هزم جمع الناصر وولى الجند وأمراؤهم الأدبار ونزح أعيان دمشق إلى مصر يتبعون سير الناصر ، حتى خلت دمشق من حاكم أو أمير أو أعيان البلاد ، ولكن شيخ الإسلام ابن تيمية بقى صامدا مع عامة الناس فاجتمع شيخ الإسلام مع من بقى من أعيان البلاد ، واتفق معهم على تولى الأمور وأن يذهب هو على رأس وفد من الشام لمقابلة غازان فقابله فى بلدة النبك وقد دارت بينهما مناقشة عنيفة قال البالسى قال الشيخ ابن تيمية لغازان وترجمانه يترجم كلام الشيخ : أنت تزعم أنك مسلم ومعك قاض وإمام وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا : فغزوتنا . وبلغت بلادنا على ماذا؟ .

وأبوك وجدك كانا كافرين وما غزوا بلاد الإسلام بعد أن عاهدونا وأنت عاهدت فغدرت وقلت فما وفيت وجرت مع ابن تيمية وغازان أمور قام بها ابن تيمية كلها لله ثم قرب غازان إلى الوفد طعاما فأكلوا إلا ابن تيمية فقيل له : ألا تأكل .

فقال : كيف أكل من طعامكم وكله مما نهبتموه من أغنام الناس وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس؟ .

وغازان مصغ لما يقول شاخص إليه لايعرض عنه ، وأن غازان من شدة ما أوقع فى قلبه من الهيبة والمحبة سأل من هذا الشيخ؟ .

إنى لم أر مثله ، ولا أثبت قلبا منه ، ولا أوقع من حديثه فى قلبى ولا رأيتنى أعظم انقيادا لأحد منه .

فأخبر بحاله ، وما هو عليه من العلم والعمل ثم طلب منه غازان الدعاء .

فقال الشيخ يدعو فقال : اللهم إن كان عبدك هذا إنما يقاتل لتكون كلمتك العليا وليكون الدين كله لك ، فانصره وأيده ، وملكه البلاد والعباد وإن كان قد قام رياء وسمعة وطلبا للدنيا ولتكون كلمته هى العليا وليذل الإسلام وأهله فأخذله وزلزله ودمره واقطع دابره ، وغازان يؤمن على دعائه ويرفع يديه . قال البالسي – فجعلنا نجمع ثيابنا خوفا من أن نتلوث بدم ابن تيمية إذا أمر بقتله ، فلما خرجنا من عنده قال قاضى القضاة نجم الدين وغيره :

كدت تهلكنا وتهلك نفسك والله لانصحبك من هنا ، فقال : وإنى والله لا أصحبكم .

قال البالسي : فانطلقوا عصبة وتأخر هو فى خاصة نفسه ومعه جماعة من أصحابه فتسامعت به الخواتين والأمراء وأصحاب غازان فأتوه

يتبركون بدعائه وهو سائر إلى دمشق ووالله ما وصل إلى دمشق إلا فى نحو ثلاثمائة فارس في ركابه .

وكنت أنا فى جملة من كان معه وأما أولئك الذين أبوا أن يصحبوه فحرج عليهم جماعة من التتار فشلحوهم أى سلبوهم ثيابهم ومامعهم[١] .

★ ★ ★

(١) مختصر مهاج السة للدهبى ص ٣٣٢ .

خاتمة

وبعد فهذا آخر ما تم جمعه واختياره من المواقف التاريخية وأسأل الله تعالى أن ينفع بها إخوانى المسلمين وسبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

وكتبه وحيد بالي
عفا الله عنه وعن جميع إخوانه المسلمين
آمين

★ ★ ★

فهرس الكتاب

الموضـــوع	الصفحة

* * *

لَمْ يُعْدَمِ الرِّجَال

لَمْ يُعْدَمِ الرِّجَالُ صَدِّقُونِـــي   وإنَّمـــا الإعْـــدَامُ لِلْخَئُـــونِ
رِجَالُنا لَم يِنْزِلُوا بَلْ صَعَدُوا   إلى الْفَرَادِيسِ التى قَدْ وُعِدُوا
ولم يموتـــوا ليس للشهيـــدِ   موتٌ وَلِكـنْ جنةُ الخُلُـــودِ
لاتَدْمَعُـــوُا إلَّا مِنَ الأفْـــرَاحِ   ما اليومُ يومُ الحُـزْنِ والأتْرَاحِ
اليـومُ يومُ الحُورِ والحُبُـــورِ   ولا تَظُنُّـوا ضَجْعَـــةَ الْقُبُـــورِ
نِهَايَـــةً للمؤمـــنِ الصَّدُوقِ   بَلْ هِىَ بَدْءُ عَيْشِهِ الحَقِيـــقِ
وللشهيـــدِ مَنْـــزِلٌ كَرِيـــمْ   لهُ مكـــانٌ سامـــقٌ عَظيـــمْ
وَرُوحُـهُ تَرِفُّ طَىَّ حَوْصَلَـــهْ   لطائرٍ مُخْضَوْضَرٍ .... مَاأجمله
كَيْفَ يَشَاءُ فى الجِنَانِ يَمْشى   وَيَسْتَظِـــلُّ بِظِـــلَالِ الْعَـــرْشِ
وَعَيْشُهُ المَجِيدُ في القيامـــه   مَعَ النَّبِيِّـــنَ أُلِى الْكَرَامَـــه
يْشَفـَعُ في سَبْعِيـنَ مِنْ ذَوِيـــهِ   فَهَـــلْ يَصِحُّ أنَّنَـــا نَبْكِيـــهِ
أَمُ الأصَحُّ أنْ نُقِيـــمَ الزينـــه   وَنُعْلِنَ الأفراحَ في المدينه ؟
وَنَرْفَـــعَ الأكُـــفُّ للسمـــاءِ   ندعـو إله الجُـودِ والْعَطَـــاءِ
وَنَطْلُبَ الشَهَـــادَةَ الكـــريمه   لنلتقي بالأنْـــفُس العظيمـــةْ
بجنـــةِ الخلـــودِ والسعـــاده   فَجُـدْ لنـــا يا

محجوبُ

دارالإيمـان
للطبع والنشر والتوزيع
١٧ ش خليل الخياط ـ مصطفى كامل
إسكندرية ت: ٥٤٥٧٧٦٩ ـ ٥٤٤٦٤٩٦